وصايا الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم دراسة في الدواعي الموضوعيَّة المُستفادة للدعاة
(وصية الموت اختيارًا)

م. د. رعد صبار صالح سليم
Yaad111222@icloud.com
مديرية الوقف السني: محافظة الأنبار

الملخص:-

عاش النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثةً وعشرين عاماً في ميادين الدعوة، كلها جهاد وتبليغ، وهداية وتعليم، وتأسيس لأمة لا تزول، ودين لا يبلى، ولم يكن مرضه الأخير خروجاً عن هذا المسار، بل كان ختاماً له، يتجلّى فيه حرصه على أمته، وتمام نصيحته لهم، واستمرار تبليغه للحق.

بدأت علائم المرض لاثنتين وعشرين ليلة من صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة، وكان المرض شديداً متقطعاً، يفيق فيه النبي صلى الله عليه وسلم أحياناً، ثم يشتد عليه، حتى حُمل على أكتاف أصحابه للصلاة، ثم اشتد به المرض فأمر أن يُصبّ عليه من الماء، وأوصى بأن يُقرّ في بيت عائشة رضي الله عنها، فمكث فيه بقية أيامه.

في هذه الأيام العصيبة، التي تُسكِت آلامها أعظم الخطباء، وتُغلق لوعتها أبلغ الألسن، كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل التوجيه والإرشاد، ويصدر عنه من الوصايا ما يدلّ على إحاطة علمه، وتمام رحمته، وشدة عنايته بالأمة.

لقد وردت في كتب الصحاح والسير مجموعة من هذه الوصايا التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم في مرض وفاته، وهي متفرقة في الروايات، متوزعة في المناسبات، لكنها متحدة في الغاية، مجتمعة على مقاصد عظيمة: حفظ التوحيد، أداء الأمانة، رعاية الصلاة، صيانة الأمة، والتحذير من الغلو والاختلاف.

وهذا ما يسعى هذا البحث لاستكشافه، لا من خلال جمع النصوص فقط، بل بتحليل مضامينها، وتأمّل دلالاتها، واستنباط العبر منها، وخاصة ما يتصل بميدان الدعوة والدعاة، فذلك كان ولا يزال باب الرحمة الأكبر للأمة.

الكلمات المفتاحية: **وصايا الرسول، وصية الموت، الدواعي الموضوعية.**

Manifestations of Loss and Grief In Modern Arabic Feminist Poetry

Dr. Ra'd Sabar Salih Saleem
Directorate of Alsuni Endowment/Alanbar

Abstract:-

The Prophet, may God bless him and grant him peace, lived for twenty-three years in the arena of preaching, all of which was devoted to jihad and preaching, guidance and education, and establishing an everlasting nation and an everlasting religion. His final illness was not a departure from this path, but rather its conclusion, revealing his concern for his nation, his complete advice to them, and his continued preaching of the truth.

The signs of his illness began on the twenty-second night of Safar in the eleventh year of the Hijra. The illness was severe and intermittent, during which the Prophet (peace and blessings of Allah be upon him) would regain consciousness sometimes, then become more severe, to the point that he was carried on the shoulders of his companions to pray. Then his illness became more severe, so he ordered that water be poured over him, and he recommended that he stay in the house of Aisha (may Allah be pleased with her), and he remained there for the rest of his days.

In these difficult days, when the pain of these days silences the greatest orators and the anguish of these days silences the most eloquent tongues, the Prophet, may God bless him and grant him peace, continued to provide guidance and advice, issuing commandments that demonstrate his comprehensive knowledge, complete mercy, and intense concern for the nation.

The Sahihs and biographies contain a collection of these commandments that the Prophet, may God bless him and grant him peace, gave during his final illness. They are scattered throughout the narrations and distributed across different occasions, but they are united in their purpose and united in great objectives: preserving monotheism, fulfilling the trust, observing prayer, protecting the nation, and warning against extremism and disagreement.

This is what this research seeks to explore, not only by collecting texts, but also by analyzing their contents, contemplating their implications, and deriving lessons from them, especially those related to the field of advocacy and preachers, as this was and remains the greatest gateway to mercy for the nation.

Keywords: *: The Messenger's commandments, the death will, objective motives.*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، والصلاة والسلام على من بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، محمد بن عبد الله، النبي الأمي، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره وسار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اعتنى النبي صلى الله عليه وسلم بأمته عناية بالغة، فلم يدع خيراً إلا دلهم عليه، ولا شراً إلا حذرهم منه، وكان صلوات ربي وسلامه عليه حريصاً أشد الحرص على أن تظل دعوة الإسلام قائمة متجددة، يقودها المصلحون، ويبلغها الدعاة، ويحفظها العلماء، ولم يكن ذلك في زمن صحته فقط، بل حتى في أشد اللحظات، وأصعب الساعات، لحظات الاحتضار، إذ لم تشغله آلام الموت وأوجاع الفراق عن تبليغ الوصايا الجامعة، والتوجيهات العظيمة، التي بقيت مناراً للدعاة، وميراثاً للمهتدين، وسبيلاً للرشد في أزمنة الفتن وضعف الإيمان.

ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث المتواضع، ليسلط الضوء على ما ورد من وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته، وما تحمله من دلالات وإرشادات للدعاة في طريقهم، لعلها تكون زاداً وذكرى وتبصرة لأهل الدعوة في زمانٍ كثرت فيه المغريات، وتنوعت فيه التحديات، وضعف فيه الصدق في تبليغ الرسالة.

أهمية الموضوع:

تبرز أهمية هذا الموضوع من جهات عديدة، منها:

١. أن هذه الوصايا حوت مبادئ جامعة في العقيدة، والأخلاق، والعلاقات، ومقاصد الشريعة، مما يجعلها نبراساً للدعاة والناصحين.

٢. أنها تمثل في مجموعها منهجاً عملياً للدعوة، وميزاناً ربانياً للتعامل مع الأمة حال ضعفها أو بعد انقطاع الوحي.

٣. أن في دراستها إحياءً للسُّنّة، وربطاً بين جيل الصحابة وجيل الدعاة المعاصرين، إذ يتصل الداعية بوحي السماء في آخر لحظاته على الأرض.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث المنهج الاستقرائي والتحليلي، باستقراء الروايات الصحيحة الواردة في مرض وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم استخراج الوصايا التي وجهها للأمة، وتحليلها في ضوء المقاصد الدعوية، واستنباط القواعد التي يستفيد منها الداعية، مع دعم ذلك بالشواهد من كلام العلماء، والربط بين المعاني والسياقات التاريخية والدعوية.

خطة البحث:

تم تقسيم البحث إلى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

التمهيد: موجز عن مرض النبي صلى الله عليه وسلم وبيان حاله في أيامه الأخيرة.

الفصل الأول: وصاياه في العقيدة والتوحيد، وما فيها من دروس للدعاة.

الفصل الثاني: وصاياه في حفظ الصلاة والحقوق، وأثر ذلك في منهج الدعوة.

الفصل الثالث: وصاياه في السياسة الشرعية ورعاية الأمة، وما يستنبط منها في فقه القيادة الدعوية.

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات المستفادة من البحث.

الفصل الأول: وصاياه في العقيدة والتوحيد، ودروسها للدعاة

إنَّ العقيدة تمثل الأساس المتين الذي تُبنى عليه حياة المسلم، وهي أول ما يجب على الداعية أن يعتني به، تعليماً وترسيخاً وحماية، ولذلك لم تكن وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته لتغفل هذا الأصل العظيم، بل جاءت مشحونة بالتحذيرات والتنبيهات، تنطق بحرارة الغيرة على صفاء التوحيد، وخوف الانحراف، وحرصه البالغ على حماية الأمة من فتن الشرك والغلو والبدعة.

وقد صدرت من النبي صلى الله عليه وسلم في أيامه الأخيرة وصايا عقائدية مهمة، تستحق من الدعاة أن يقفوا معها وقفات عميقة، ويتأملوا مقاصدها وأبعادها، ليجعلوا منها أساساً لتصحيح الانحرافات العقدية، وتجديد دعوة التوحيد، بعيداً عن الجدل والخصومات، بل بالحكمة والموعظة الحسنة.

أولاً: التحذير من الغلو في القبور والأنبياء.

من أوائل الوصايا التي سجلتها كتب الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته، قوله:

"لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(١)"، وفي رواية أخرى: عن عبد الله بن الحارث النجراني قال: حدثني جندب قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: "إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد! إني أنهاكم عن ذلك(٢)".

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، ١٠٢/٢، رقم الحديث: (١٣٩٠)، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، ٦٧/٢، رقم الحديث: (٥٣٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها،

فقد كرر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الوصية في أكثر من موقف خلال مرضه، ورفع صوته بها في سكرات الموت، وأعلن فيها البراءة من طريق اليهود والنصارى، لما فيه من الغلو في الصالحين حتى آل بهم الأمر إلى الشرك، وعبادة القبور، وهذه من أعظم الذرائع إلى الضلال.

وإن هذه الوصية النبوية تحمل دلالات غاية في الأهمية للدعاة، منها:

أن الانحراف العقدي غالباً ما يبدأ بالغلو في الأشخاص، وخاصة الصالحين والعلماء والأنبياء، ثم يتطور شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى ألوان من الشرك.

أن حماية التوحيد لا تكون فقط في التعليم، بل في سدّ الذرائع المؤدية إلى الشرك، إذ لا ينتظر الداعية حتى يقع الانحراف، بل يُحذر من أسبابه.

فعلى الدعاة أن يعتنوا ببيان هذه المعاني للناس بوضوح، دون غلظة، فيبينوا أن المقامات الشريفة لا تعني جواز الذبح عند القبور، أو بناء المساجد عليها، وأن محبة النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين لا تُفهم إلا من خلال الشرع.

ثانياً: النهي عن اتخاذ قبره مزاراً.

من وصاياه صلى الله عليه وسلم في مرضه ما رواه أبو داود بإسناد حسن: "لا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم(١)"، وقد كرر هذا المعنى في غير موضع، فقال: "اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(٢)".

٦٧/٢، رقم الحديث: (٢٣).

(١) سنن أبي داود، كتاب المناسك، باب في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة قبره، ٣٨٥/٣، رقم الحديث: (٢٠٤٢).

(٢) ينظر: موطأ مالك، رواية يحيى، ٢٤٠/٢، رقم الحديث: (٥٩٣).

هذه الوصية النبوية تعلم الداعية أن عليه أن يربّي الناس على التعلق بالله لا بالأشخاص، ولو كانوا من أعظم الخلق، فإن التوحيد لا يقوم إلا على الانقطاع إلى الله وحده.

ويحتاج الداعية في هذا المقام إلى فقه الخطاب، فالمسألة حساسة، تتعلق بحبّ النبي صلى الله عليه وسلم، ولذا فإن المدخل المناسب هو بيان السنة، وشرح كيف أن حبّ النبي الحقيقي هو باتباعه، والاهتداء بهديه، والبعد عن ما نهى عنه ولو كان في قبره الشريف.

ثالثاً: التحذير من الافتراق والبدع في الدين.

ورد في حديث مشهور عن أبي هريرة وأبي موسى وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في آخر حياته:

"افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة"، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي(١)".

وهذا الحديث ليس فقط خبراً عن المستقبل، بل هو تحذير ووصية، إذ بيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمة ستتفرق، ولكنه دلّ على المعيار الذي يميز الفرقة الناجية، وهو التمسك بالهدي النبوي وهدي الصحابة(٢).

فإن من أعظم وظائف الداعية أن يدعو إلى الاجتماع على الحق، لا إلى التعصب للأشخاص أو الجماعات.

وأن الخلاف لا يُعالج بالخصومة، بل بالرجوع إلى النصوص، وأن الدعوة يجب أن تبقى جامعة غير ممزقة، تربط الناس بالأصول لا بالأهواء(١).

(١) سنن الترمذي، أبواب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٥٨٦/٤، رقم الحديث: (٢٨٣١)، وقال: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

(٢) ينظر: العرف الشذي شرح سنن الترمذي، ١٢٥/٤.

وأن سعة الصدر في الخلافيات، والتمسك بالثوابت في الأصول، هو منهج النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يجب أن يُغرس في تربية الداعية أولاً، ثم في خطابه مع الناس ثانياً(٢).

- ❖ نستخلص من هذا الفصل أن النبي صلى الله عليه وسلم، في أشد لحظات الاحتضار، لم يغفل عن تنقية عقيدة الأمة، ووقايتها من الانحراف، وكان كل ذلك منهجاً نبوياً دعوياً رفيعاً.

فعلى الداعية أن يجعل العقيدة محور دعوته، لا في الطرح المجرد، بل بالربط الواقعي، والحرص على تهذيب التصورات، وتصحيح المفاهيم، وتثبيت التوحيد في النفوس، بالحكمة والموعظة الحسنة، والاقتداء بهدي النبي صلى الله عليه وسلم في بيان الحق دون مجاملة أو تعنيف.

الفصل الثاني

وصاياه في الصلاة والحقوق، وأثرها في منهج الدعوة

تمثل الصلاة والحقوق الجماعية والفردية ركائز أساسية في بناء المجتمع المسلم، وهي من أكثر ما أكّد عليه النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته منذ بداياتها، بل كانت الصلاة هي أول ما فرض في الإسلام، وأعظم ما شدد عليه في مرض وفاته، وقد حافظ النبي صلى الله عليه وسلم على هذا التوجيه حتى في لحظاته الأخيرة، وكأنما أراد أن يُورّث الأمة وصاياه الكبرى التي تحفظ لها دينها، وصلاحها، واستقامتها.

وحين نتأمل الوصايا النبوية التي وردت في أيامه الأخيرة، نجد فيها توجيهات بالغة الأهمية تتعلق بـ: الصلاة، والعبودية، ومراعاة حقوق الناس، والعدل، والرفق

(١) ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، عبيد الله الرحماني المباركفوري، ٢٧٤/١.

(٢) ينظر: العرف الشذي شرح سنن الترمذي، الكشميري، ١٢٦/٤.

بالرعية، وتحقيق التكافل، والابتعاد عن الظلم والغفلة، وكلها وصايا جامعة للدعوة من حيث مبناها ومعناها.

أولاً: وصيته بالصلاة.

روى الإمام ابن ماجه عن علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام النبي صلى الله عليه وسلم: الصلاة، وما ملكت أيمانكم(١).

وفي رواية: عن أم سلمة، قالت: كان من آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم" حتى جعل نبي الله صلى الله عليه وسلم يلجلجها في صدره، وما يفيض بها لسانه(٢).

إن تكرار النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الوصية في لحظاته الأخيرة، مع شدّة المرض وثقل الحال، دليل واضح على أن الصلاة هي الركن الأعظم الذي يجب أن تبنى عليه حياة الفرد والمجتمع. فهي ليست عبادة فردية فحسب، بل هي مدرسة تربوية، ومفتاح للفلاح، وعنوان لهوية المسلم.

ولذا، فإن على الدعاة أن يحيوا هذه المعاني في دعوتهم، وأن يعيدوا الاعتبار إلى خطاب الصلاة، بعد أن غُيّب في كثير من البيئات الدعوية.

إن التربية على الصلاة ليست مجرد دعوة لأداء الفريضة، بل هي:

دعوة للالتزام الزمني والانضباط اليومي.

تدريب مستمر على الخشوع والتجرد لله.

تربية على حب الطهارة، والتنظيم، والعمل الجماعي.

تأسيس للربط بين الداعي وربّه، وبين المجتمع وخالقه، بشكل عملي متجدد لا ينقطع(١).

(١) سنن ابن ماجه، أبواب الوصايا، باب الحث على الوصية، ٧/٤، رقم الحديث: (٢٦٩٨).

(٢) مسند الإمام أحمد، ٨٤/٤٤، رقم الحديث: (٢٦٤٨٣).

ثانياً: وصيته بـ"ما ملكت أيمانكم".

في نفس الحديث، قرن النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة بقوله: "وما ملكت أيمانكم(٢)"، وهو تعبير عن العبيد والإماء، أي: من يكونون في ملك المسلمين من الرقيق، وعلى الرغم من أن الرِّق انتهى حكمه في الزمن المعاصر، إلا أن المعنى العام الذي اشتمل عليه هذا الجزء من الوصية لا يزال قائماً، بل هو في غاية الأهمية.

ففي قوله هذا توجيه بليغ إلى رعاية الحقوق الاجتماعية والإنسانية للضعفاء، والخدم، ومن هم تحت ولاية الإنسان أو مسؤوليته، من زوجة، وأبناء، وعمال، ومستخدمين.

فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مصلحاً روحياً فقط، بل كان باني مجتمع، ومؤسس نظام حياة متكامل، ولذلك قرن العبودية لله (الصلاة)، برعاية العدل مع الناس (وما ملكت أيمانكم).

والداعية المعاصر ينبغي أن يتنبه إلى أن بناء الإنسان لا يكون فقط بالعقيدة المجردة، أو الشعائر، بل بإقامة القسط، وإعطاء الناس حقوقهم، وتربيتهم على الإنصاف والعدل والرحمة، وخاصة مع من لا يملكون قوة الدفاع عن أنفسهم.

بل إن هذه الوصية تعكس المسؤولية الأخلاقية التي تقع على عاتق الداعية، إذ لا يُتصور أن يدعو إلى الله، وهو يظلم عامله أو يسيء إلى زوجته أو يهمل حقوق أولاده، لأن القدوة هنا هي الوسيلة الأولى للتأثير(٣).

ثالثاً: وصيته بالنساء والأنصار.

في مرض موته صلى الله عليه وسلم، أوصى بالنساء خيراً، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "واستوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من

(١) ينظر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٣٧، ٨٨/١٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ينظر: الخلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة، ص: ٤٦.

ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيراً(١)"، كما قال: "الله الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله(٢)".

وهذه الوصية ليست عابرة، بل هي امتداد لخط الدعوة النبوية الذي كان حريصاً على أن تُصان المرأة في كرامتها، وأن يُعاد لها موقعها في بناء الأمة، لا كأداة ولا تابع، بل كعنصر فعّال في التربية والدعوة.

وكذلك أوصى بالأنصار عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: "إن الأنصار كرشي وعيبتي، وإن الناس سيكثرون ويقلون، فاقبلوا من محسنهم، واعفوا عن مسيئهم(٣)".

وهذه وصية وفاء، وتعليم للأمة أن لا تنسى فضل أهل الفضل، وأن تُكرم الرواد، وتُحفظ مكانتهم، وألا تُؤكل أقدارهم تحت ضغط الأهواء أو المصالح.

ومن خلال هذه الوصايا يتعلم الداعية أن الدعوة لا تنفصل عن العدل والإنصاف، ولا تُثمر ما لم تكن خُلُقية بقدر ما هي علمية.

وأن الإصلاح يبدأ من الداخل: من البيت، من المسؤوليات الفردية، من حسن التعامل مع الأهل والأقربين، وأن الوفاء للصحابة والرواد والصالحين منهج نبوي، يجب أن يُغرس في النفوس حتى لا تُبتلى الأمة بجحود التاريخ أو نكران الجميل(٤).

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ١٣٣/٤، رقم الحديث: (٣٣٣١)، صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء/ ١٧٨/٤، رقم الحديث: (١٤٦٨).

(٢) سنن أبي داود، كتاب المناسك، باب صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٢٨٥/٣، رقم الحديث: (١٩٠٥).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، ٣٥/٥، رقم الحديث: (٣٨٠١)، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار رضي الله تعالى عنهم، ١٧٤/٧، رقم الحديث: (٢٥١٠).

(٤) ينظر: المفهم لما أشكل من صحيح مسلم، القرطبي، ٤٦٩/٦.

وأن احترام المرأة وتكريمها ليس خطاباً حداثياً، بل وصية نبوية متأصلة، وعلى الداعية أن يثبت هذا المعنى في خطابه(١). ولقد جسّدت وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة والحقوق معالم المنهج الوسطي المتوازن، الذي يربط العبد بخالقه، ويحمله مسؤولية مجتمعه، ويُنشئ أمةً متصالحة مع دينها وأخلاقها.

وعلى الدعاة أن يستلهموا من هذا الفصل أهم دروس التوازن بين الروح والسلوك، بين التعبد والإحسان، بين الحقوق الفردية والواجبات المجتمعية، وأن يجعلوا وصايا النبي في لحظات الوداع دستوراً أخلاقياً يومياً، لا خطبة عابرة أو ذكرى موسمية.

الفصل الثالث

وصاياه في السياسة الشرعية ورعاية الأمة، وما يستنبط منها في فقه القيادة الدعوية

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم نبياً مبلّغاً فقط، بل كان قائداً للدولة، ومؤسساً للمجتمع، وحاكماً عادلاً بين الناس، وقد جمع في سيرته بين الوحي والقيادة، وبين الرحمة والحزم، وبين الشورى والحكمة، ولذلك فإن وصاياه في لحظاته الأخيرة لم تخلُ من التوجيهات المتعلقة بالشأن العام، وبحسن إدارة الأمة، والحفاظ على كيانها ووحدتها.

وقد رُويت عنه في سياق مرضه مجموعة من الأقوال والمواقف التي يمكن تصنيفها ضمن أبواب السياسة الشرعية، لما تحمله من دلالات تتصل بإدارة شؤون الأمة، وضبط العلاقات بين الأفراد والجماعات، وتأسيس نظام القيادة على أسس الشورى والعدل، والابتعاد عن الفتن والفرقة.

(١) ينظر: التحبير لإيضاح معاني التيسير، للصنعاني، ٤٥٥/٦.

وفي هذا الفصل، نسلط الضوء على أبرز هذه الوصايا، ثم نبين كيف يمكن للداعية أن يستلهم منها قواعد نبوية في فقه القيادة الدعوية، وفهم العمل العام في ضوء السنن الربانية، والوصايا النبوية.

أولاً: وصيته بشأن الأمراء والولاة.

عن أبي بكرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرضه:

"مروا أبا بكر فليصل بالناس(١)"، وقد تكررت هذه الوصية منه صريحة، في أكثر من موقف، حتى قال: "يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر(٢)".

ورغم ما في الأمر من عبادة محضة، إلا أن العلماء استنبطوا منها بعداً سياسياً، إذ أن الإمامة في الصلاة تمهيد طبيعي للإمامة في الخلافة، وهي دلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك أمر الأمة دون إشارات واضحة، بل هيأهم لقبول أبي بكر، وأرسل إليهم من خلالها رسالة تتعلق بقيادة الجماعة بعده.

ومن هذه الوصية يتعلم الداعية دروساً جليلة في فقه ترشيح القادة، وتقديم الأقدر، ومراعاة المقامات، ومنها:

أن القيادة في الإسلام ليست مقام تفضيل أو سلطة، بل مسؤولية شرعية، يجب أن تُسند إلى الأليق بها من حيث العلم، والتقوى، والسبق، والمكانة في القلوب(٣).

أن تثبيت القيادة في الناس يحتاج إلى تمهيد نفسي وتربوي، لا إلى فرضٍ قهري، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في تقديم أبي بكر للصلاة.

ثانياً: وصيته بالاجتماع وعدم التنازع.

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ١٣٦/١، رقم الحديث: (٦٧٨)، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس، ٢٢/٢، رقم الحديث: (٤١٨).

(٢) ينظر: اختصار صحيح البخاري وبيان غريبه، أبو العباس القرطبي، ٦٧/٣، رقم الحديث: (١٥٠٥).

(٣) ينظر: الخلافة، محمد رشيد رضا، ص: ١٢٤.

عن ابن عباس ﷺ قال: "لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: قوموا. قال عبيد الله: فكان يقول ابن عباس: إن الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب؛ لاختلافهم ولغطهم(١)".

وهذا الموقف وإن كان في ظاهره خلافاً، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعنف أحداً منهم، بل تركهم على ما هم عليه، وفي هذا دلالة على فقه نبوي عظيم: أن الفُرقة في لحظات الشدة تُفضي إلى الضلال، وأن الجماعة أقرب إلى العصمة، وأن المبالغة في التنازع تُغلق أبواب الخير.

فعلى الداعية أن يحرص على ضبط الخلاف، وألا يتحول الخلاف في الوسائل أو التفصيلات إلى شقاق بين الأفراد أو الجماعات.

وأن أول ما يُطلب من الداعية في زمن الفتن أن يحافظ على وحدة الصف، وأن يتجنب الجدال العقيم الذي يصدّ الناس عن أصل الرسالة(٢).

وأن العمل الجماعي الدعوي ينبغي أن يكون قائماً على الشورى والاحترام المتبادل، لا على التفرد أو التنازع أو كسر هيبة القيادة.

ثالثاً: تحذيره من الفتن.

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، ٩/٦، رقم الحديث: (٤٤٣٢)، صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، ٧٦/٥، رقم الحديث: (١٦٣٧).

(٢) ينظر: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، رؤوف شلبي، ص: ٣٤٩.

عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن(١)".

وكان مما قاله أيضاً: " إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها(٢)".

إن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يودّع الدنيا، لم ينسَ أن يُحذّر الأمة من الفتن، لأنها تمثل التهديد الأخطر لمسيرتها.

وأن على الدعاة أن يكونوا ربّانيين في النظرة، فلا يركنوا إلى زخارف الدنيا، ولا يلهيهم التنافس على المناصب والظهور عن جوهر الرسالة.

- ❖ نستخلص أن وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في الجانب القيادي والسياسي تكشف عن منهج ناضج متكامل، يجمع بين الرحمة والحكمة، وبين التوجيه الشرعي والتأسيس المؤسساتي، وهو منهج لا يزال هو الأصلح لضبط مسيرة الدعوة، وترشيد الفعل الجماعي، وتربية الدعاة على البصيرة في القيادة، والعدل في إدارة الناس، والشفافية في المواقف، والبُعد عن الفتنة والانقسام.

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن، ١٣/١، رقم الحديث: (١٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، ١٢١/٢، رقم الحديث: (١٤٦٥).

الخاتمة

بعد هذا التطواف في رحاب وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في أيامه الأخيرة، تتجلى أمامنا صورة متكاملة لنبيّ الأمة وهو يودّعها لا بالأمنيات ولا بالمشاعر العابرة، بل بالوصايا الجامعة، والأوامر الباقية، والتحذيرات الرشيدة، التي تعكس صفاء رسالته، وعمق نبوته، وحرصه البالغ على هداية أمته.

لقد كان في مرضه، الذي اشتد عليه حتى أثّر في جسده الشريف، يواصل تعليم الناس، ويحرص على إقامة الصلاة فيهم، ويوجه الصحابة، ويُحذر من الشرك، ويأمر بالعدل، ويضع الأسس الضرورية لاستقرار الأمة بعده. وهذا يدل على أن الدعوة ليست مجرد كلمات تُلقى، بل منهج يُعاش حتى آخر لحظة، وأن القائد والداعية هو من يثبت عند النهاية كما ثبت عند البداية.

أبرز النتائج

١. إنَّ وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه تميزت بالتركيز على أصول الدين: التوحيد، والصلاة، والعدل، والاجتماع، وترك الشرك والفرقة.

٢. إنَّ هذه الوصايا لم تكن توجيهات عاطفية، بل كانت رسائل عملية موجَّهة للجيل المقبل من الدعاة والقادة، لتثبيتهم على الطريق، ومنع الانحراف بعد وفاته.

٣. إنَّ ارتباط العقيدة بالواقع، والعبادة بالمعاملة، والقيادة بالتواضع، كان هو جوهر تلك الوصايا، مما يعكس عظمة المنهج النبوي وشموله.

٤. إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أسس من خلال وصاياه نموذجاً للقيادة الدعوية الرشيدة: الوضوح، الشورى، الرحمة، التوجيه، التربية.

٥. إنَّ التكرار في بعض الوصايا، كقوله: "الصلاة الصلاة"، أو وصاياه في القبور، يدل على شدة اهتمامه بهذه القضايا، وضرورة إعادتها إلى واجهة الخطاب الدعوي في زماننا.

التوصيات

١. ضرورة إدماج وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته في المناهج الدعوية، لتكون مرجعاً عملياً للدعاة في تكوينهم التربوي والقيادي.

٢. إعادة إحياء خطاب التوحيد والصلاة في الدعوة، دون غلو ولا تفريط، بل بميزان الرحمة والحكمة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي في آخر حياته.

٣. توجيه الدعاة الجدد لفهم السياسة الشرعية في ضوء وصايا النبي، بعيداً عن الانفعالات أو الغلو، بل على منهج النبوة القائم على الشورى والوحدة.

٤. التركيز على بناء الشخصية الدعوية المتوازنة، التي تُجيد فقه العبادة، وفقه الناس، وتجمع بين العلم والعمل، وبين التواضع والقيادة.

٥. ضرورة العناية بنشر هذه الوصايا في وسائل الإعلام ومنابر التعليم، وإبراز دلالاتها العملية في بناء الأمة، لا سيما في زمن الفتن والاضطراب.

قائمة المصادر والمراجع

١. اختصار صحيح البخاري وبيان غريبه، أبو العباس القرطبي ضياء الدين أحمد بن عمر الأنصاري الأندلسي القرطبي (٥٧٨ هـ - ٦٥٦ هـ)، المحقق: رفعت فوزي عبد المطلب، دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.

٢. التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (ت ١١٨٢هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه: مُحَمَّد صُبْحي بن حَسَن حَلّاق أبو مصعب، مَكتَبَةُ الرُّشد، الرياض - المملكة الْعَرَبِيَّة السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٣. الجامع الصحيح = صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، المحقق: محمد ذهني أفندي - إسماعيل بن عبد الحميد الحافظ الطرابلسي- أحمد رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري - محمد عزت بن عثمان الزعفرانبوليوي- أبو نعمة الله محمد شكري بن حسن الأنقروي، دار الطباعة العامرة – تركيا، عام النشر: ١٣٣٤ هـ.

٤. الجامع الكبير = سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط (جميع الأجزاء)، عبد اللطيف حرز الله (جـ ١)، أحمد برهوم (جـ ٢)، محمد كامل قرة بللي (جـ ٣)، هيثم عبد الغفور (جـ ٤)، جمال عبد اللطيف (جـ ٥)، سعيد اللحام (جـ ٦)، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٥. الخلافة، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ)، الزهراء للاعلام العربي - مصر / القاهرة.

٦. الخُلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض.

٧. الدعوة الإسلامية في عهدها المكي: مناهجها وغاياتها، دكتور رؤوف شلبي، دار القلم، الطبعة: الثالثة.

٨. سلوة الكئيب بوفاة الحبيب صلى الله عليه وسلم، ابن ناصر الدين الدمشقي (ت ٨٤٢ هـ)، تحقيق ودراسة: د صالح يوسف معتوق، خرج أشعاره: أ د هاشم صالح مناع، الناشر: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث – الإمارات.

٩. سنن ابن ماجه ت الأرنؤوط، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني (٢٠٩ - ٢٧٣ هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط ﴿ت ١٤٣٨ هـ﴾- عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

١٠. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط ﴿ت ١٤٣٨ هـ﴾- محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

١١. شمائل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أحمد بن عبد الفتاح زواوى، دار القمة – الإسكندرية.

١٢. صحيح البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة: السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١ هـ، بأمر السلطان عبد الحميد الثاني، ثم

صَوّرها بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ لدى دار طوق النجاة – بيروت.

١٣. العرف الشذي شرح سنن الترمذي، محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي (ت ١٣٥٣هـ)، تصحيح: الشيخ محمود شاكر، دار التراث العربي - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

١٤. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (ت ١٤١٤هـ)، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

١٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط ﴿ت ١٤٣٨ هـ﴾- عادل مرشد – وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

١٦. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

١٧. الموطأ، مالك بن أنس، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي ﴿ت ١٤٣٩ هـ﴾، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي – الإمارات، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.